بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مَوسُوعةُ البَراهِينِ والمُعجِزات

دلائلُ نبوّةِ محمّدٍ ﷺ وصِدقِ القُرآنِ الكريم

مُعجِزاتٌ عِلميّة · شواهدُ تاريخيّةٌ وأثَريّة · نُبوءاتٌ تَحقَّقَت

بِشاراتُ التّوراةِ والإنجيل · عالَمُ الجِنِّ والسِّحرِ والغَيب

مَشروحةٌ شَرحاً يَفهَمُه الطِّفل · ١٥١ رَسماً مُلوَّناً

١٥١ بُرهاناً مُرتَّباً بقُوَّتِه

الباب التّاسع

الإعجازُ في اللّغةِ والتّحدّي

أعظمُ معجزةٍ ليست في السّماءِ ولا في الأرض... بل في الكتابِ نفسِه:
تحدٍّ مفتوحٌ منذ ألفٍ وأربعِمئةِ عام، لم يَجرُؤ أحدٌ على قَبولِه.

١٢ موضوعاً

١٤٠

تَحَدٍّ نَزَلَ ثَلاثَ دَرَجاتٍ... ولم يُقبَل

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

سورة البقرة – الآية ٢٣

التَّحَدّي يَنزِلُ دَرَجةً بعدَ دَرَجةٍ حتّى يَبلُغَ أدنى ما يُمكِن

بكلامٍ بسيط

تَحَدّى القرآنُ العَرَبَ أن يَأتوا بمِثلِه. فلمّا عَجَزوا، خَفَّفَ: عَشرُ سُوَر. فلمّا عَجَزوا، خَفَّفَ أكثَر: **سورةٌ واحدةٌ فقط**، ولو كانت ثَلاثَ آياتٍ قِصار. ولم يَأتِ بها أحدٌ إلى اليوم.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كان العَرَبُ **أُمّةَ البَيانِ بلا مُنازِع**. الشِّعرُ دِيوانُهم وفَخرُهم، وتُقامُ لهم الأسواقُ في عُكاظَ وذي المَجاز، وتُعَلَّقُ القَصائدُ على الكَعبة. وفيهم امرُؤُ القَيسِ وزُهَيرٌ ولَبيدٌ وطَرَفة. وكانوا أحوَجَ ما يَكونونَ إلى إسقاطِ هذه الدَّعوةِ بأيسَرِ الطُّرُق.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

مَرَّت أربعةَ عشرَ قَرناً، وحاوَلَ أُناسٌ فلم يَصمُد لهم شَيء. ومَن قَرَأَ ما نُسِبَ إلى مُسَيلِمةَ الكَذّابِ وابنِ المُقَفَّعِ وغيرِهما وَجَدَه **مَحَلَّ سُخرِيَةٍ لا مُعارَضة**. والتَّحَدّي ما زال قائماً، والوَسائلُ اليومَ أضخَمُ: مَجامِعُ لُغَويّة، وجامِعاتٌ ومَعاجِمُ رَقميّة، وحاسوباتٌ تُحَلِّلُ الأساليب. ومع ذلك لم يُقَدَّم نَصٌّ واحدٌ يَقولُ فيه أهلُ اللُّغةِ: هذا مِثلُه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

اللّافِتُ في هذا التَّحَدّي أمرانِ يَجعَلانِه فَريداً. الأوّل: **التَّدَرُّجُ النّازِل** – وهو عَكسُ ما يَفعَلُه المُتَحَدّي عادةً. فالمُبالِغُ يَرفَعُ سَقفَ تَحَدّيه ليَبقى بعيدَ المَنال؛ أمّا هذا فأنزَلَه حتّى بَلَغَ أدنى حَدٍّ مُمكِن: **سورةٌ واحدةٌ ولو كانت أقصَرَ سُوَرِ القرآن**. الثّاني: أنّه **أذِنَ لهم بالاستِعانةِ بكلِّ أحد**: «وادعُوا شُهَداءَكم من دونِ اللّه» – أي اجتَمِعوا كلُّكم وادعُوا مَن شِئتُم. ثمّ جَزَمَ بالنَّتيجةِ مُقَدَّماً في آيةٍ أُخرى: «**فإن لم تَفعَلوا ولن تَفعَلوا**» – وهذا جَزمٌ بالمُستَقبَلِ لا يَجرُؤُ عليه مُخاطِر.

١٤١

ما كُنتَ تَتلو مِن قَبلِهِ مِن كِتاب

وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ

سورة العنكبوت – الآية ٤٨

الأُمّيّةُ هنا ليست نَقصاً... بل هي البُرهان

بكلامٍ بسيط

النَّبيُّ ﷺ **لم يَكُن يَقرَأُ ولا يَكتُب**، ولم يَدرُس على أحد. والآيةُ تَذكُرُ ذلك وتُعَلِّلُه: لو كان يَقرَأُ ويَكتُبُ **لَشَكَّ النّاسُ** وقالوا: نَقَلَ من الكُتُب.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت الكِتابةُ نادِرةً في مكّة، والأُمّيّةُ هي الغالِبة. ومع ذلك كان بمكّةَ من يَقرَأُ ويَكتُب، وكان في الجَزيرةِ يَهودٌ ونَصارى لهم كُتُبٌ وعُلَماء. فلو كان النَّبيُّ ﷺ قارِئاً كاتِباً لكانت التُّهمةُ جاهِزةً ولا جَوابَ عنها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

أُمّيّةُ النَّبيِّ ﷺ من أثبَتِ الحَقائقِ التّاريخيّةِ في سيرَتِه، ولم يُنازِع فيها خُصومُه في زَمانِه – وهم أحرَصُ النّاسِ على الطَّعن. وقد **اتَّهَموه بكلِّ شَيءٍ إلّا هذا**: قالوا شاعِرٌ وساحِرٌ وكاهِنٌ ومَجنون، وقالوا «إنّما يُعَلِّمُه بَشَر» – فرَدَّ القرآنُ: «لِسانُ الذي يُلحِدونَ إليه أعجَميٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبيٌّ مُبين». أي أنّ الرَّجُلَ الذي أشاروا إليه لا يُحسِنُ العربيّةَ أصلاً.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القرآنُ هنا **يُقَدِّمُ الحُجّةَ التي كان يُمكِنُ أن تُقالَ عليه، ثمّ يَنقُضُها**. وهذا أُسلوبٌ لا يَسلُكُه إلّا واثِق. فالآيةُ تَقول: العَجَبُ ليس أنّ هذا الكِتابَ عَظيم، بل أنّه جاء على لِسانِ **مَن لا يَقرَأُ ولا يَكتُب**. ثمّ زادَ الأمرَ خُطورةً: أنّ النَّصَّ يَتَضَمَّنُ أخبارَ الأُمَمِ السّابِقةِ وتَفاصيلَ تاريخيّةً دَقيقة، وتَشريعاتٍ كامِلةً في المِيراثِ والقَضاءِ والحَرب، ووَصفاً لأُمورٍ كَونيّةٍ لم تُعرَف بعد. كلُّ ذلك من رَجُلٍ لا يَملِكُ أن يَقرَأَ سَطراً واحداً. وهذا هو مَعنى قَولِه: «**إذاً لارتابَ المُبطِلون**» – أي أنّ أُمّيَّتَه هي التي أغلَقَت بابَ الرَّيب.

١٤٢

ثَلاثٌ وعِشرونَ سنةً... بلا تَناقُضٍ واحد

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا

سورة النِّساء – الآية ٨٢

نُزولٌ مُتَفَرِّقٌ على الأحداثِ لا تَأليفٌ في مَجلِس

المدينة — ٢٣ سنة — مكّة

في حَربٍ وسِلم · في فَقرٍ وغِنًى · في ضَعفٍ وقُوّة
وفي فَرَحٍ وحُزنٍ وهِجرةٍ وحِصار… ولا تَناقُضَ في حَرف

كِتابٌ لم يُكتَب دَفعةً واحدةً ولم يُراجَع ولم يُنَقَّح

بكلامٍ بسيط

نَزَلَ القرآنُ **مُتَفَرِّقاً على ثَلاثٍ وعِشرينَ سنة**، آيةً وآياتٍ بحَسَبِ الأحداث – في الحَربِ والسِّلم، وفي الشِّدّةِ والرَّخاء. ومع ذلك لا تَجِدُ فيه تَناقُضاً ولا تَبَدُّلاً في المَنهَجِ ولا رُجوعاً عن قَولٍ سابِق.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الكُتُبُ تُؤَلَّفُ في مَجلِسٍ ثمّ تُراجَعُ وتُنَقَّحُ قبلَ نَشرِها، فتُزالُ منها المُتَناقِضات. أمّا القرآنُ فكان يُتلى على النّاسِ **فَوراً عندَ نُزولِه**، ويَحفَظونَه ويَكتُبونَه، ثمّ لا سَبيلَ إلى تَعديلِ ما مَضى. وكلُّ ما نَزَلَ في مكّةَ كان في يَدِ خُصومِه قبلَ الهِجرةِ بسِنين.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

يُمكِنُ لأيِّ أحدٍ أن يَختَبِرَ هذا بنَفسِه اليوم: أن يَكتُبَ نَصّاً مُتَفَرِّقاً على عِشرينَ سنة، يَتَناوَلُ العَقيدةَ والتَّشريعَ والتّاريخَ والأخلاقَ والكَونَ والنَّفس، ثمّ يُراجِعَ في آخِرِه فلا يُوجَدَ فيه تَناقُض. وقد فَتَّشَ الباحِثونَ – مُسلِمونَ وغيرُهم – في القرآنِ أربعةَ عشرَ قَرناً بَحثاً عن تَناقُض، وأُلِّفَت كُتُبٌ كامِلةٌ في «مُشكِلِ القرآن» و«تَأويلِ مُختَلِفِ الآيات»، وانتَهَت جَميعاً إلى أنّ ما يَبدو اختِلافاً هو **اختِلافُ تَنَوُّعٍ لا تَضادّ**.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

الآيةُ تُقَدِّمُ هنا **مِعياراً عِلميّاً قابِلاً للتَّطبيق**، لا دَعوى. تَقول: لو كان بَشَريّاً **لَوَجَدتُم فيه اختِلافاً كَثيراً**. وهذا صَحيحٌ منطِقيّاً: النَّصُّ الذي يَمتَدُّ عِشرينَ سنةً في ظُروفٍ مُتَقَلِّبةٍ لا بُدَّ أن يَحمِلَ أثَرَ تَبَدُّلِ حالِ صاحِبِه. والأعجَبُ أنّ النَّبراتِ لم تَتَغَيَّر بتَغَيُّرِ الحال: فآياتُ العَفوِ والرَّحمةِ تَنزِلُ **بعدَ النَّصر** لا قبلَه، وآياتُ الثَّباتِ والوَعدِ تَنزِلُ **في الهَزيمةِ والحِصار**. ولو كان النَّصُّ انعِكاساً لحالِ صاحِبِه لكان العَكسُ هو المُتَوَقَّع.

١٤٣

شَهادةُ الوَلِيدِ بنِ المُغيرة

وَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ

رواه الحاكِمُ والبَيهقيُّ في الدَّلائل – مَشهورٌ في كُتُبِ السِّيَرة

قالها أعقَلُ رِجالِ قُرَيشٍ وأشَدُّهم عَداوة

«إنّ له لَحَلاوة... وإنّ عليه لَطَلاوة»

«وإنّ أسفَلَه لَمُغدِق، وإنّ أعلاه لَمُثمِر»

«وما يَقولُ هذا بَشَر»

ثمّ عادَ فقال: «إن هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر»

اعتَرَفَ بالحَقيقةِ... ثمّ اختارَ قَولاً يُرضي قَومَه

بكلامٍ بسيط

الوَليدُ بنُ المُغيرةِ كان من أذكى قُرَيشٍ وأعرَفِهم بالكَلام، وكان من ألَدِّ أعداءِ الدَّعوة. وحين سَمِعَ القرآنَ وَصَفَه بأجمَلِ وَصفٍ وقال: **«وما يَقولُ هذا بَشَر»**. ثمّ ضَغَطَ عليه قَومُه فقال: «إن هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر».

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كانت قُرَيشٌ تَبحَثُ عن كَلِمةٍ تَقولُها للحُجّاجِ عن محمّدٍ ﷺ قبلَ المَوسِم، فاجتَمَعوا إلى الوَليدِ لأنّه أعقَلُهم وأعلَمُهم بالشِّعرِ والبَيان. فعَرَضوا عليه: كاهِن؟ مَجنون؟ شاعِر؟ ساحِر؟ – **فرَدَّ كلَّ هذه** بحُجَجٍ من صِناعةِ الكَلامِ نَفسِها.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القِصّةُ مَشهورةٌ في كُتُبِ السِّيرةِ والتَّفسير، ونَزَلَ فيه ما في سورةِ المُدَّثِّر: «**إنّه فَكَّرَ وقَدَّر ◌ فقُتِلَ كيف قَدَّر ◌ ثمّ نَظَر ◌ ثمّ عَبَسَ وبَسَر ◌ ثمّ أدبَرَ واستَكبَر ◌ فقال إن هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر**». والآياتُ تَصِفُ حالَه النَّفسيَّ وَصفاً دَقيقاً: تَفكيرٌ، ثمّ تَقديرٌ، ثمّ نَظَر، ثمّ عُبوس، ثمّ إدبارٌ واستِكبار، ثمّ الحُكمُ الذي أرضى به قَومَه. وحُجَجُه في رَدِّ الكِهانةِ والشِّعرِ مَنقولةٌ عنه بتَفصيل.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

شَهادةُ الخَصمِ أقوى الشَّهادات، خاصّةً إذا كان **خَبيراً في مَجالِ الشَّهادة**. والوَليدُ كان حَكَماً في الشِّعرِ تُعرَضُ عليه القَصائد. وقد فَرَّقَ تَفريقاً فَنّيّاً دَقيقاً بين القرآنِ وكلِّ ما يُشبِهُه ظاهِراً: قال عن الشِّعر: «لقد عَرَفتُ الشِّعرَ كلَّه... وما هو بالشِّعر»، وعن الكِهانة: «ما هو بزَمزَمةِ الكاهِنِ ولا سَجعِه». ثمّ وَصَفَ بِنيَتَه: «**أسفَلُه مُغدِق وأعلاه مُثمِر**» – أي أنّ ظاهِرَه جَميلٌ وباطِنَه غَزيرُ المَعنى. وهذا وَصفٌ فَنّيٌّ من مُتَخَصِّصٍ مُعادٍ، لا ثَناءُ مُحِبّ. ثمّ إنّ رُجوعَه عن قَولِه **بعدَ ضَغطِ قَومِه** – وهو مُسَجَّلٌ في القرآنِ نَفسِه – يَكشِفُ أنّ التَّكذيبَ كان مَوقِفاً اجتِماعيّاً لا قَناعةً عَقليّة.

١٤٤

لا شِعرٌ ولا نَثرٌ ولا سَجعُ كُهّان

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

سورة الحاقّة – الآيتان ٤١-٤٢

نَصٌّ لا يَدخُلُ في أيِّ قالَبٍ من قَوالِبِ العربيّةِ المَعروفة

بكلامٍ بسيط

العربيّةُ كان فيها ثَلاثةُ أشكالٍ للكَلامِ الرَّفيع: **الشِّعرُ** بأوزانِه، و**النَّثرُ** المُرسَل، و**سَجعُ الكُهّان**. والقرآنُ ليس واحداً منها – بل جِنسٌ قائمٌ بذاتِه.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

العَرَبُ كانوا أعلَمَ أهلِ الأرضِ بأوزانِ الشِّعرِ وبُحورِه وقَوافيه، يُمَيِّزونَ الكَسرَ في البَيتِ بالسَّليقة. وكانوا يَعرِفونَ سَجعَ الكُهّانِ ويَسخَرونَ من تَكَلُّفِه. ومع ذلك **اضطَرَبَ قَولُهم في القرآنِ اضطِراباً شَديداً**: قالوا شِعر، ثمّ سِحر، ثمّ كِهانة، ثمّ أساطيرُ الأوَّلين – وكلُّ رَأيٍ يَنقُضُ ما قبلَه.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

القرآنُ يُخالِفُ الشِّعرَ لأنّه **لا يَجري على وَزنٍ ولا قافِيةٍ مُلتَزَمة**، ويُخالِفُ النَّثرَ لأنّ فيه **إيقاعاً داخِلِيّاً وفَواصِلَ مُنتَظِمة**، ويُخالِفُ السَّجعَ لأنّ سَجعَ الكُهّانِ **يُتكَلَّفُ فيه اللَّفظُ لأجلِ الفاصِلة** بينما القرآنُ تَجيءُ فَواصِلُه تابِعةً للمَعنى لا حاكِمةً عليه. وهذا مَبحَثٌ مُستَقِرٌّ في الدِّراساتِ اللُّغَويّةِ العربيّةِ والاستِشراقيّةِ معاً. وقد قال المُستَشرِقُ آربري إنّ إيقاعَه لا نَظيرَ له في اللُّغاتِ التي يَعرِفُها.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

اضطِرابُ الخُصومِ في التَّصنيفِ هو الدَّليل. فحين يَعجِزُ خُبَراءُ فَنٍّ عن إدراجِ نَصٍّ تحت أيِّ بابٍ من أبوابِ فَنِّهم، ويَتَناقَضُ قَولُهم فيه من مَجلِسٍ إلى مَجلِس، فذلك أمارةٌ على أنّه خارِجٌ عن جِنسِ ما يَعرِفون. والقرآنُ سَجَّلَ هذا الاضطِرابَ نَفسَه عليهم: «**انظُر كيف ضَرَبوا لكَ الأمثالَ فضَلُّوا**». ثمّ تَحَدّاهم بالمَعيارِ الذي يُتقِنونَه: لا بالسَّيفِ ولا بالمالِ، بل **بِصِناعَتِهم التي بَرَعوا فيها دون أهلِ الأرض**. ومَن يَختَلِقُ كِتاباً لا يُقامِرُ بأن يَتَحَدّى خُصومَه في المَيدانِ الذي يَتَفَوَّقونَ فيه.

١٤٥

كِتابٌ يُعاتِبُ صاحِبَه

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ

سورة عَبَس – الآيات ١-٣

آياتٌ فيها عِتابٌ صَريحٌ للنَّبيِّ ﷺ

«عَبَسَ وتَوَلّى» · «عَفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهم»

«ما كان لنَبيٍّ أن يَكونَ له أسرى» · «وتُخفي في نَفسِكَ»

ثمّ تُتلى على النّاسِ في الصَّلاةِ جَهراً

وتُحفَظُ وتُكتَبُ ولا تُحذَفُ أبداً

مَن يَختَلِقُ كِتاباً لا يَضَعُ فيه لَومَ نَفسِه

بكلامٍ بسيط

في القرآنِ آياتٌ **تُعاتِبُ النَّبيَّ ﷺ نَفسَه** وتُصَحِّحُ له مَوقِفاً. وهذه الآياتُ تُتلى على النّاسِ جَهراً في الصَّلاة، ويَحفَظُها الصِّغارُ والكِبار، ولم تُحذَف ولم تُخَفَّف.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

مَن يَدَّعي النُّبُوّةَ يَحتاجُ إلى **صورةٍ كامِلةٍ لا نَقصَ فيها**. وأعداؤه يَتَرَبَّصونَ بأيِّ زَلّة. فأن يَنزِلَ نَصٌّ يُعاتِبُه ويُخَطِّئُ اجتِهادَه، ثمّ يُتلى في المَسجِدِ أمامَ الجَميع، أمرٌ يُخالِفُ كلَّ حِسابٍ سِياسيٍّ أو نَفسيّ.

ماذا يقول العلمُ اليوم؟

الأمثِلةُ كَثيرةٌ وصَريحة: **سورةُ عَبَس** كاملةً في عِتابِه حين انصَرَفَ عن رَجُلٍ أعمى إلى سادةِ قُرَيش؛ و«**عَفا اللهُ عنكَ لِمَ أذِنتَ لهم**» في إذنِه للمُتَخَلِّفينَ عن تَبوك؛ و«**ما كان لنَبيٍّ أن يَكونَ له أسرى حتّى يُثخِنَ في الأرض**» في أسرى بَدر؛ و«**وتُخفي في نَفسِكَ ما اللهُ مُبديه وتَخشى النّاسَ واللهُ أحَقُّ أن تَخشاه**»؛ و«**لِمَ تُحَرِّمُ ما أحَلَّ اللهُ لك**». وقد قالت عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها: لو كان النَّبيُّ ﷺ كاتِماً شَيئاً من الوَحي لَكَتَمَ هذه الآية.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

هذا من أقوى الأدِلّةِ العَقليّةِ في هذا الباب، وهو ما يُسَمّى عند المُؤَرِّخينَ **«مِعيارَ الإحراج»**: النَّصُّ الذي يَضُرُّ بمَصلَحةِ ناقِلِه أقربُ إلى الصِّدق. ولاحِظ أنّ العِتابَ لم يَقَع في مَسائلَ هامِشيّة، بل في **قَراراتٍ سِياسيّةٍ وعَسكَريّةٍ كُبرى**: التَّعامُلُ مع الأسرى، والإذنُ للمُنافِقين، وحالٌ شَخصيّةٌ في بَيتِه. وأضِف إلى ذلك تَفصيلاً آخَر: أنّ القرآنَ **أجابَ عن أسئلةٍ ولم يُجِب عن أُخرى**، بل تَأخَّرَ الوَحيُ عن النَّبيِّ ﷺ أيّاماً في حادِثةِ الإفكِ وزَوجُه مُتَّهَمة، حتّى قال النّاسُ ما قالوا. ولو كان الأمرُ بيَدِه لَما تَأخَّرَ يوماً واحداً.

١٤٦

كَلامُه ﷺ لا يُشبِهُ القُرآنَ أبداً

وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ

سورة النَّجم – الآيتان ٣-٤

التَّحليلُ الأُسلوبيُّ يُفَرِّقُ بينهما بلا عَناء

بكلامٍ بسيط

النَّبيُّ ﷺ كان أفصَحَ العَرَب، وأحاديثُه في قِمّةِ البَلاغة. ومع ذلك **لا يَشتَبِهُ حَديثُه بالقرآنِ على أحدٍ أبداً** – الأُسلوبانِ مُختَلِفانِ اختِلافاً واضِحاً، ولم يَحدُث قَطُّ أن نُسِبَ حَديثٌ إلى القرآن.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

لو كان القرآنُ من تأليفِه ﷺ لكان أُسلوبُه واحداً في كَلامِه كلِّه – فالإنسانُ يَحمِلُ بَصمةً أُسلوبيّةً لا يَستَطيعُ الفِكاكَ منها، خاصّةً على مَدى عِشرينَ سنة. وأصحابُه كانوا يَسمَعونَ الاثنَينِ يَوميّاً، فلم يَختَلِط عليهم أمرُهما لَحظةً واحدة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

التَّحليلُ الأُسلوبيّ (Stylometry) عِلمٌ قائمٌ اليومَ يُنسَبُ به النَّصُّ إلى صاحِبِه بِقياسِ تَوزيعِ الكَلِماتِ وطُولِ الجُمَلِ وبُنيةِ التَّراكيب. وقد طُبِّقَ على القرآنِ والحَديثِ فظَهَرَ اختِلافُهما البَيِّن. وأوضَحُ فَرقٍ في البِنيَة: القرآنُ يَقومُ على **الفَواصِلِ المُنتَظِمة** والالتِفاتِ والتَّنَقُّلِ بين الضَّمائر، والحَديثُ لا يَجري على هذا البِناء. ثمّ إنّ القرآنَ **يُخاطِبُ النَّبيَّ ﷺ نَفسَه بصيغةِ الأمرِ والنَّهيِ والعِتاب** ويَأمُرُه أن يَقولَ «قُل» – أكثَرَ من ثَلاثِمِئةِ مَرّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أضِف إلى ذلك نَوعاً ثالِثاً: **الحَديثُ القُدُسيّ** – وهو ما يَرويه النَّبيُّ ﷺ عن رَبِّه بالمَعنى، ومع ذلك **لا يُعَدُّ قُرآناً ولا يُتلى في الصَّلاة**. فعِندَنا ثَلاثةُ مُستَوَياتٍ من الكَلامِ يَنطِقُ بها رَجُلٌ واحد، ويُفَرَّقُ بينها تَفريقاً حاسِماً في الحُكمِ والتَّعامُل: القرآنُ يُتعَبَّدُ بتِلاوَتِه ويُتَحَدّى به ويُنقَلُ بالتَّواتُرِ حَرفاً بحَرف؛ والقُدُسيُّ يُنسَبُ إلى اللهِ في مَعناه ويُروى بلَفظِ النَّبيِّ ﷺ؛ والنَّبَويُّ كَلامُه هو. هذا **التَّمييزُ الثُّلاثيُّ الدَّقيق** قائمٌ منذ اليومِ الأوّلِ ولم يَختَلِط. ولو كان الكلُّ من مَصدَرٍ واحدٍ بَشَريٍّ لما أمكَنَ الحِفاظُ على هذا الفَصلِ عِشرينَ سنة.

ولَكُم في القِصاصِ حَياة

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

سورة البقرة – الآية ١٧٩

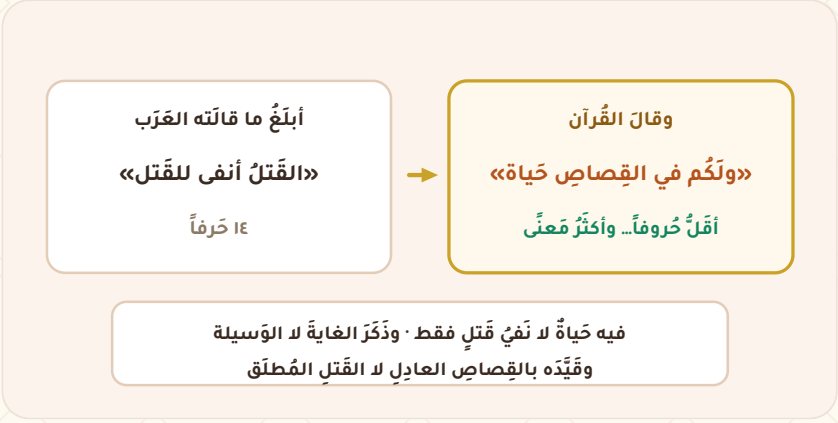

مِثالٌ واحدٌ من مِئاتٍ يَدرُسُها عُلَماءُ البَلاغة

بكلامٍ بسيط

كان أبلَغُ ما تَفتَخِرُ به العَرَبُ في هذا المَعنى قَولُهم: «**القَتلُ أنفى للقَتل**». فجاء القرآنُ بجُملةٍ **أقَلَّ حُروفاً وأغزَرَ مَعنًى**: «ولَكُم في القِصاصِ حَياة».

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

«القَتلُ أنفى للقَتل» كانت تُعَدُّ قِمّةَ الإيجازِ عند العَرَبِ ويُضرَبُ بها المَثَل. وكانوا يَتَنافَسونَ في اختِصارِ المَعاني العَظيمةِ في ألفاظٍ قَليلة، ويَعُدُّون ذلك أعلى دَرَجاتِ الفَصاحة.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

حَلَّلَ عُلَماءُ البَلاغةِ الفَرقَ بينهما فوَجَدوا سَبعةَ وُجوهٍ فأكثَر. من أظهَرِها: أنّ القرآنَ ذَكَرَ **الحَياةَ** وهي الغايةُ المَحبوبة، والمَثَلُ ذَكَرَ القَتلَ وهو مَكروه؛ وأنّه قَيَّدَه بـ**«القِصاص»** أي القَتلِ العادِلِ المَشروع، والمَثَلُ أطلَقَ القَتلَ فشَمِلَ الظُّلمَ؛ وأنّه أثبَتَ حَياةً **مُستَمِرّةً لِلمُجتَمَعِ كلّه** لا مُجَرَّدَ نَفيٍ لحالةٍ واحدة؛ وأنّه خَلا من تَكرارِ لَفظِ «القَتل» مَرَّتَين؛ وأنّه خَتَمَ بالغايةِ الأخلاقيّة: «لعلّكم تَتَّقون». كلُّ ذلك بحُروفٍ أقَلّ.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

ما يُهِمُّ هنا ليس هذا المِثالَ وحدَه، بل **أنّه ليس استِثناءً**. فعُلومُ البَلاغةِ العربيّةِ كلُّها – المَعاني والبَيانُ والبَديع – نَشَأَت أصلاً في مُحاوَلةِ تَفسيرِ إعجازِ هذا النَّصّ، وأُلِّفَت فيها مِئاتُ الكُتُبِ من «إعجازِ القرآن» للباقِلّانيّ إلى «دَلائلِ الإعجاز» و«أسرارِ البَلاغة» لعبدِ القاهِرِ الجُرجانيّ. أي أنّ **عِلماً إنسانيّاً كامِلاً قامَ لأجلِ تَحليلِ كِتابٍ واحد** – ولا نَظيرَ لذلك في تاريخِ أيِّ لُغةٍ من لُغاتِ الأرض. وما زال الباحِثونَ إلى اليومِ يَستَخرِجونَ منه ما لم يَستَخرِجه مَن قبلَهم.

أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِم

بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ

رواه البُخاريُّ ومُسلِم – مُتَّفَقٌ عليه

«الدِّينُ النَّصيحة»

«لا ضَرَرَ ولا ضِرار»

«إنّما الأعمالُ بالنِّيّات»

«المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ من لِسانِه ويَدِه»

كَلِماتٌ مَعدودةٌ.. بُنِيَت عليها أبوابٌ كامِلةٌ في الفِقه

قَواعِدُ كُلّيّةٌ تَنتَظِمُ آلافَ المَسائل

بكلامٍ بسيط

من خَصائصِ النَّبيِّ ﷺ أنّه كان يَقولُ **الكَلِمةَ القَليلةَ تَحمِلُ المَعنى الكَثير**. وقد بُنِيَت على أحاديثَ من بِضعِ كَلِماتٍ أبوابٌ كامِلةٌ في الفِقهِ والقانون.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الحِكمةُ المُوجَزةُ مَعروفةٌ في كلِّ الأُمَم: أمثالُ العَرَبِ وحِكَمُ الهِندِ ومَواعِظُ اليونان. لكنّها **مَواعِظُ أخلاقيّةٌ عامّة**، لا قَواعِدَ يُبنى عليها نِظامٌ قانونيٌّ مُتَكامِل. والفَرقُ بين الحِكمةِ والقاعِدةِ الفِقهيّةِ فَرقٌ جَوهَريّ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

خُذ مِثالاً واحداً: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرار**» – أربَعُ كَلِمات. بُنِيَ عليها بابٌ كامِلٌ في الفِقهِ الإسلاميِّ يَشمَلُ: الجِوارَ والبِناءَ والطَّلاقَ والبَيعَ والشُّفعةَ والغَصبَ والمِلكيّةَ وتَقييدَ حَقِّ المالِك. وقد صارَت من **القَواعِدِ الكُبرى الخَمسِ** التي تَدورُ عليها المَذاهِبُ الفِقهيّةُ كلُّها. ومِثلُها «إنّما الأعمالُ بالنِّيّات» التي جَعَلَها الأئمّةُ ثُلُثَ العِلم، وقال الشّافِعيُّ إنّها تَدخُلُ في سَبعينَ باباً من الفِقه.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

القُدرةُ على صِياغةِ **قاعِدةٍ كُلّيّةٍ جامِعةٍ مانِعة** أصعَبُ بكَثيرٍ من كِتابةِ نَصٍّ مُطَوَّل. فالقاعِدةُ يَجِبُ أن تَستَوعِبَ كلَّ ما يَدخُلُ تَحتَها وتَستَبعِدَ كلَّ ما لا يَدخُل، وأن تَصمُدَ أمامَ حالاتٍ لم تَخطُر لصاحِبِها. وهذا ما يَشتَغِلُ به المُشَرِّعونَ اليومَ فتَخرُجُ نُصوصُهم في مُجَلَّداتٍ ثمّ تُعَدَّلُ كلَّ سنة. أمّا أن يَصمُدَ نَصٌّ من أربَعِ كَلِماتٍ أربعةَ عشرَ قَرناً، ويَستَوعِبَ نَوازِلَ لم تَكُن مَوجودةً أصلاً – كالتَّلَوُّثِ الصِّناعيِّ والضَّرَرِ الرَّقميِّ – فذلك أمرٌ يَستَحِقُّ الوَقفةَ عندَه. ولاحِظ أنّ الحَديثَ نَفسَه يَنسِبُ ذلك إلى الوَهبِ لا الكَسب: «**بُعِثْتُ** بجَوامِعِ الكَلِم».

كِتابٌ في صُدورِ المَلايين

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

سورة العنكبوت – الآية ٤٩

أكثَرُ كِتابٍ حُفِظَ عن ظَهرِ قَلبٍ في تاريخِ البَشَر

مَلايينُ الحُفّاظِ في كلِّ قارّةٍ وكلِّ جِيل

نَسخةٌ حَيّةٌ في كلِّ صَدر – لا تُحرَقُ ولا تُبَدَّل

بكلامٍ بسيط

القرآنُ لم يُحفَظ في الكُتُبِ وحدَها – بل في **صُدورِ النّاس**. ومنذ أربعةَ عشرَ قَرناً يَحفَظُه في كلِّ جِيلٍ مَلايينُ البَشَر، بينهم أطفالٌ لا يَتَكَلَّمونَ العربيّةَ أصلاً.

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

الكُتُبُ القَديمةُ كانت تُحفَظُ في نُسَخٍ مَعدودةٍ عند الكَهَنةِ والعُلَماء. فإذا احتَرَقَت المَكتَبةُ أو ضاعَت النُّسخةُ ضاعَ الكِتاب – وهذا ما وَقَعَ لكُتُبٍ كَثيرةٍ لا تُعرَفُ إلّا بأسمائها. وكانت الأُمِّيّةُ عائقاً أمامَ انتِشارِ أيِّ نَصّ.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

عَدَدُ حَفَظةِ القرآنِ اليومَ يُقَدَّرُ بالمَلايين، في إندونيسيا ونيجيريا وتُركيا وباكستان والبِلادِ العربيّةِ وأوروبّا وأمريكا. وتُقامُ لهم مُسابَقاتٌ دَوليّةٌ يَتَبارَون فيها بالحِفظِ حَرفاً بحَرفٍ مع الضَّبطِ والتَّجويد. و**أكثَرُهم من غيرِ العَرَب** – أي أنّهم يَحفَظونَ نَصّاً بلُغةٍ ليست لُغَتَهم الأُمّ. ولا يُعرَفُ كِتابٌ آخَرُ في تاريخِ الإنسانيّةِ حُفِظَ بهذه الكَثرةِ وبهذه الدِّقّة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

أثَرُ هذا على **استِحالةِ التَّحريف** هو مَوضِعُ الدَّلالة. فالنَّصُّ المَحفوظُ في الكُتُبِ وحدَها يُمكِنُ تَبديلُه بالسَّيطرةِ على النُّسَخ. أمّا نَصٌّ يَحفَظُه مَلايينُ البَشَرِ في قارّاتٍ مُتَباعِدة، لا تَجمَعُهم سُلطةٌ ولا لُغةٌ ولا دَولة، ويُتلى في الصَّلاةِ خَمسَ مَرّاتٍ كلَّ يوم – فتَبديلُ حَرفٍ واحدٍ منه **يَستَحيلُ عَمَليّاً**، لأنّه سيُكشَفُ في أوّلِ صَلاةِ جَماعة. وهذا ما تُشيرُ إليه الآيةُ بدِقّة: «آياتٌ بَيِّناتٌ **في صُدور**» – لا «في صُحُف». وهو تَحقيقٌ عَمَليٌّ لقَولِه: «إنّا نَحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإنّا له لَحافِظون»، بآليّةٍ بَشَريّةٍ قابِلةٍ للمُلاحَظةِ والعَدّ.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

خَواتيمُ مُتَفَرِّقةٌ في القُرآن

انسِجامٌ دَقيقٌ بين مَضمونِ الآيةِ واسمِ اللهِ الذي تُختَمُ به

بكلامٍ بسيط

أكثَرُ آياتِ القرآنِ تُختَمُ باسمَينِ من أسماءِ اللهِ الحُسنى. والعَجيبُ أنّ **كلَّ خاتِمةٍ تُناسِبُ مَوضوعَ آيَتِها بدِقّة** – لو بَدَّلتَ خاتِمةً بأُخرى لأحسَستَ فَوراً أنّ شيئاً اختَلّ.

ماذا كانَ النّاسُ يظنّون؟

الشِّعرُ العَرَبيُّ يَلتَزِمُ قافِيةً واحدةً في القَصيدة، وكَثيراً ما **يُتَكَلَّفُ اللَّفظُ لأجلِها** حتّى يُحشى البَيتُ بكَلِمةٍ لا حاجةَ إليها. وهذا عَيبٌ يَعرِفُه النُّقّاد. وسَجعُ الكُهّانِ كان أشَدَّ تَكَلُّفاً. فالتَّوَقُّعُ أن يَقَعَ في نَصٍّ ذي فَواصِلَ مِثلُ هذا التَّكَلُّف.

ماذا يقولُ العلمُ اليوم؟

في القرآنِ العَكسُ تَماماً: **الفاصِلةُ تابِعةٌ للمَعنى لا حاكِمةٌ عليه**. فآيةُ عُقوبةٍ وانتِقامٍ تُختَمُ بـ«عَزيزٌ ذو انتِقام»، وآيةُ تَوبةٍ بـ«غَفورٌ رَحيم»، وآيةُ دُعاءٍ بـ«سَميعٌ عَليم» – لأنّ الدّاعيَ يَحتاجُ أن يُسمَعَ ويُعلَمَ حالُه. وأشهَرُ مِثالٍ على الدِّقّة: آيةُ السَّرِقةِ تُختَمُ بـ«**عَزيزٌ حَكيم**» – عِزّةٌ في تَنفيذِ الحَدِّ وحِكمةٌ في تَشريعِه؛ فإذا جاءت آيةُ التَّوبةِ بعدَها خُتِمَت بـ«**غَفورٌ رَحيم**». وقد أُلِّفَت في هذا كُتُبٌ كاملةٌ باسمِ «عِلمِ الفَواصِل».

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

جَرِّب هذا بنَفسِك: خُذ أيَّ نَصٍّ مُقَفًّى طَويلٍ من أيِّ لُغة، واختَبِر هل تُناسِبُ كلُّ قافِيةٍ مَضمونَ جُملَتِها مُناسَبةً دَقيقة. ستَجِدُ حَتماً مَواضِعَ حُشِيَت لأجلِ الوَزنِ أو القافِية – وهذا طَبيعيٌّ في عَمَلِ البَشَر. والقرآنُ فيه أكثَرُ من ستّةِ آلافِ آية، مُعظَمُها مَختومٌ بفاصِلة، نَزَلَت **مُتَفَرِّقةً على ثَلاثٍ وعِشرينَ سنة** بلا مُسَوَّدةٍ ولا مُراجَعة. أن يَستَقيمَ هذا الانسِجامُ في هذا العَدَدِ وبهذه الطَّريقةِ في النُّزول، أمرٌ لا يُفَسَّرُ بمَهارةٍ لُغَويّةٍ مَهما بَلَغَت.

والآن... ماذا تَصنَعُ بكلِّ هذا؟

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ

سورة فُصِّلت – الآية ٥٣

لا يُطلَبُ منك التَّسليمُ لدَليلٍ واحد... بل النَّظَرُ في مَجموعِها

بكلامٍ بسيط

وَصَلتَ إلى آخِرِ الكِتاب. كلُّ دَليلٍ مَرَّ بك يُمكِنُ أن تُناقِشَه وَحدَه. لكنّ السُّؤالَ الحَقيقيّ: **ما احتِمالُ أن تَجتَمِعَ هذه كلُّها صُدفةً في رَجُلٍ واحد؟**

ماذا كان النّاسُ يظنّون؟

كلُّ أُمّةٍ في التّاريخِ كان عندها ما تُعَظِّمُه. لكنّ السُّؤالَ الذي يُفَرِّقُ: هل عندها ما **يُمكِنُ اختِبارُه وتَكذيبُه**؟ الأساطيرُ لا تُقَدِّمُ نُبوءةً مُؤَقَّتةً بمُدّة، ولا وَصفاً كَونيّاً يُخالِفُ عِلمَ زَمانِه، ولا تَحَدّياً مَفتوحاً يَبقى قائماً أربعةَ عشرَ قَرناً.

ماذا يقولُ العِلمُ اليوم؟

ما قَرَأتَه هنا خَمسةُ خُيوطٍ مُستَقِلّةٍ تَماماً، لا يَعتَمِدُ أحَدُها على الآخَر: **وَصفٌ كَونيٌّ** يُخالِفُ عِلمَ عَصرِه ثمّ يُصَدِّقُه العِلمُ بعدَ قُرون؛ و**شَواهِدُ أثَريّة** خَرَجَت من تحتِ الأرضِ بعدَ أن أُنكِرَت؛ و**نُبوءاتٌ مُؤَقّتةٌ مُحَدَّدة** وَقَعَت كما قِيلَت؛ و**نُصوصٌ في كُتُبِ الخُصومِ أنفُسِهم** ما زالت بين أيديهم؛ و**تَحَدٍّ لُغَويٌّ مَفتوحٌ** لم يُقبَل. ولو سَقَطَ خَيطٌ لبَقِيَت الأربَعةُ قائمة.

لماذا هذه معجزةٌ قاطعة؟

المَنطِقُ هنا هو مَنطِقُ **تَراكُمِ الأدِلّةِ المُستَقِلّة**، وهو الذي يُعمَلُ به في القَضاءِ والعِلمِ معاً. فدَليلٌ واحدٌ قد يُحتَمَل، ودَليلانِ قد يُتَّفَقان، أمّا عَشَراتُ الأدِلّةِ من حُقولٍ لا صِلةَ بينها – فَلَكٌ وجيولوجيا وطِبٌّ وآثارٌ وتاريخٌ ولُغة – تُشيرُ كلُّها إلى جِهةٍ واحدة، فذلك ما لا يُفَسَّرُ بالمُصادَفة. والقرآنُ لا يَطلُبُ منك تَسليماً أعمى؛ بل يَدعوكَ إلى النَّظَرِ والتَّدَبُّرِ في أكثَرَ من سَبعِمِئةِ مَوضِع: «أفلا يَنظُرون»، «أفلا يَتَدَبَّرون»، «أفلا يَعقِلون»، «قُل هاتوا بُرهانَكم». وقد وَضَعَ أمامَكَ ما وَعَدَ به: **«سَنُريهم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم»**. وقد رَأيتَ. والباقي مَتروكٌ لك وَحدَك.